أورد في كتابه "يوم ولد اليمن مجده" حقائق هامة عن أسباب الثورة السبتمبرية

المناضل اللواء عبدالغني مطهر:

شظف العيش في الداخل ومعاناة اليمنيين في المهجر جعلني أنذر مالي وحياتي للتخلص من الإمامة

قراءة/ محمد محمد إبراهيم

في كتاب "الثورة اليمنية" -الذي تميز عن كل ما كُتب فردياً عن هذه الثورة- ورد اسمه ناصع الظهور وجدير بالشهادة، ليس لأن الكتاب خلاصة الحقائق الثورية والنضالية في اليمن بل لأن الذي ألفه هو فريق الصف النخبوي والنضالي الأول، المتمثل في لجنة تنظيم الضباط الأحرار، وصفوة من حملوا على عاتقهم هم نجاح الثورة، ففي الصفحة الـ"٧٨" يقول الكتاب عنه: "وللحقيقة والتاريخ فإنه (..) كان من أكثرهم حماساً واندفاعاً وجرأة في العمل الوطني بالرغم أنه كان من أكثر تجار تعز ثراء واستقراراً وأكثرهم تقرباً من القصر، وبالرغم من ذلك كان (...) أكثر عناصر التجمع الوطني حماساً في كسب ثقة الضباط والتعامل معهم".

هذا هو المناضل والثائر عبدالغني مطهر الذي كتب مذكراته وشهاداته على مشهد الحدث الثوري السبتمبري بطريقة نقل ما حدث لا ما يقال عن الحدث من تفسيرات ورؤى ممحوراً ذلك في ظرف زمني محدد بـ"يوم ولد اليمن مجده" وهو عنوان كتابه الجميل لغة الرصين رصداً لأبرز أحداث تلك الحقبة النضالية كشاهد عيان لا ينقل سوى الحقيقة التي يحملها وحدها اللوم في السلب والإيجاب تجاه من عايش في ذلك الزمن الثوري.

لقد استعرضت الكثير من كتابات المناضلين وأوراق مذكراتهم وشهاداتهم، ولمست جوانب التميز وتفاوت مستوى هذا التميز، وإذا كانت لكل شخص بصمته الخاصة به في طرح شهاداته التاريخية، في جوانب المصداقية والشمول والاتفاق والاختلاف مع الآخر، وكذا درجة التناقض، والغموض والسير على العناوين وطغيان الذات في سياقات السرد واللغة، فإن المناضل عبدالغني مطهر في كتابه "يوم ولد اليمن مجده" قد تميز في طريقة التناول لغة ورصداً للحقائق، متفرداً بتكوير ذاته نكراناً، بسرد مناقب زملائه في دروب النضال، والاكتفاء بما قيل عن مشواره ومشروعه النضالي في كتاب الثورة اليمنية المشار إليه في السطور الأولى من هذا العرض المبسط.

عن مذكراته يقول المناضل عبدالغني مطهر: "إنني لم استهدف إطلاقاً من هذا الكتاب الإساءة إلى أحد من الناس، والالتزام بسرد الحقائق لا يعني سوى البعد أو التحامل أو المجاملة، فإذا كان قول الحق قد يسيء عرضاً إلى بعض الأشخاص سواء من كان منهم حياً أو من انتقل منهم إلى رحاب ربه فاللوم هنا لا يقع إلا على الحقيقة وحدها".

وأضاف المناضل الكبير مطهر: "...وإذا كان هذا الكتاب لم يقصد به الإساءة إلى أحد فإنه أيضاً لم يقصد به الإشادة بشخصي أو التذكير بكفاحي فقد كان يكفيني ما ذكره عني بعض كتاب تاريخ تلك الحقبة، واكتفي هنا على سبيل المثال بما ورد في كتاب "الثورة اليمنية" الذي أعدته لجنة من تنظيم الضباط الأحرار، فقد جاء في الصفحة (٧٨) منه بالحرف الواحد: "وللحقيقة والتاريخ فإن عبدالغني مطهر كان أكثرهم حماساً واندفاعاً وجرأة في العمل الوطني، بالرغم من أنه كان من أكثر تجار تعز ثراء واستقراراً، وأكثرهم تقرباً من القصر، وبالرغم من ذلك فإن عبدالغني مطهر كان أكثر عناصر التجمع الوطني حماساً في كسب ثقة الضباط والتعامل معهم".

الهجرة من اليمن

ما يميز كتاب المناضل عبدالغني مطهر هو التطرق إلى الحقائق، وفق سياقات لغوية سردية أخذت شكل السيرة الذاتية، ومن خلال الذكريات الشخصية يروي مطهر ما وقعت من أحداث في تلك الحقب التاريخية، كما يؤكد هذا النهج التوثيقي في مقدمة كتابه "يوم ولد اليمن مجده" الذي قسمه إلى قسمين، تناول في الأول وتوطئة مستفيضة عن ظروف حياته الطفولية ورحلة صباه في قرية الحباترة بمنطقة الأعروق بلواء تعز حيث كان الناس يعيشون كالعبيد فلا حرية ولا كرامة، فضلاً عن معاناتهم شظف العيش على أرض دولة ضرب عليها حكامها نظاماً رهيباً من العزلة فبدت وكأنها سجن كبير معتم لا يسمع نزلاؤه سوى ما يجري من إذلال وتعذيب وتنكيل من تسول له نفسه الاعتراض على ما يرتكبه عساكر الإمام وعماله، من نهب وسلب، وسفك دماء حتى بات الناس في ذلك العالم المشوش الغامض المظلم يعيشون في رهبة وهوان ما بعده هوان.

هذه الظروف الصعبة -حسب إشارة مطهر- فرضت الهجرة عملاً بقوله تعالى: (أولم تكن أرض الله واسعة) فحين استقر عزم والدي على إرسالي إلى عدن، ولم أكن قد بلغت من العمر سوى اثني عشر عاماً، ورتب الأمر مع صديق له يعمل «جمالاً» اسمه القلابي، من قرية الأشعب، ثم جاءت ساعة الرحيل في يوم من أيام شتاء عام ١٩٣٢م حيث امتطينا ظهور الجمال التي ظلت تقطع بنا الجبال والتلال ثلاثة أيام بلياليها عن طريق المفاليس فقرية الرجاح، والغرشة وشظيف حتى انتهت بنا في عدن.

واستطرد المناضل الجسور عبدالغني مطهر سارداً تفاصيل انتقاله من مدينة عدن إلى صوماليا بمدينة حوفون، ثم إلى المكلا، ثم عودته إلى قريته بعد غياب أربع سنوات جمع خلالها سبعين ريالاً، هي ثمرة جهد متواصل وعمل نزيه لكنها كما قال مطهر لم تكن كافية لزواجه، إذ أن والده رهن قطعة أرض ليستكمل بذلك مصاريف الزفاف وكان عمره حينها (١٦) عاماً .. ثم عودته إلى عدن بعد الزواج، ومنها إلى بربرة وهرجيس في الصومال ولقائه بزملائه وبعض أصدقائه الذين عمل معهم في حوفون، ثم انتقاله إلى أديس أبابا، وبهـا بدأ تكوين النواة الأولى لنشاطه التجاري الذي كان مصدر عطائه النضالي والثوري، والداعم الأساسي لداعي الوطن.

ورغم وضعه التعليمي والمادي خلال تلك البداية إلا أن خمسة أشهر كانت كافية ليتعلم المناضل السخي عبدالغني مطهر قواعد الكتابة والأمور التجارية والحاسبات على يد من وصفه مطهر بـ"رجل صالح على خلق كريم" رجل الأعمال عبدالله عبدالغني الشوافي، وبعد ذلك يورد مطهر قصة بدايته في بناء ذاته وحياته التجارية من خلال متجر متواضع، رأس ماله الصدق والأمانة في المعاملة.

الانضمام إلى الأحرار

في عام ١٩٤٤م عاد مطهر من أديس أبابا إلى اليمن وفي ١٩٤٥م أديس أبابا محملاً صوراً من وجع الوطن عززت ألمها مخالطته في المهجر لمعظم الذين خرجوا من اليمن تحت ضغط الفاقة أو هرباً من السجن الخانق الذي نسجت جدرانه عناكب الحكم الإمامي فاختنقت الحريات بين شباكه، وأهدرت بين براثنه كرامة المواطنين.

هذه الآلام -حسب تعبير مطهر- غمرته بشعور جارف فرض عليه أن ينذر ماله وحياته في سبيل تحرير الوطن من براثن ذلك الحكم الإمـامي .. وكـانت هذه هي البداية الأولى لانضمام مطهر إلى صف الأحـرار الوطنيين، حيث بدأ التواصل بالمجموعة الوطنية في أديس أبابا أوائل عام ١٩٤٥م وكان في مقدمة رجالها المناضل الكبير التاجر أحمد عبده ناشر الذي كان على صلة طيبة بالمناضل عبدالغني مطهر حسب ما أورده في قسمه الأول من كتاب "يوم ولد اليمن مجده".

بعد ذلك أورد عبدالغني مطهر في كتابه السيرة النضالية والدور التحرري لأحمد عبده ناشر، وقصة زيارته لليمن في ١٩٤٥م بناء على طلب من السيف أحمد، وقصة لقاء ناشر بالأستاذ النعمان والقاضي الزبيري ودوره في لم اشتات اليمنيين في المهجر الذين انضم معظمهم إلى قائمة الجمعية الوطنية للأحرار، وكذلك دور جازم الحروي الذي ساهم في جمع ثمن المطبعة من أهل المهجر في أرتيريا وأثيوبيا وكيف تم إرسالها إلى عدن، وكيف واصل الحروي نضاله الوطني ليصبح من أبرز عناصر ثورة ١٩٤٨م مضحياً بأمواله في سبيل نصرتها، ومن بين الذين اعتقلوا إثر فشلها وأرغموا على السير على الأقدام مقيدين بالسلاسل والأغلال من مدينة ذمار حتى حجة حيث ألقى بهم وراء سجنه الرهيب، كما تناول مطهر دور صحيفة صوت اليمن التي كانت نتيجة تلك الرؤى والجهود ودورها الكبير في نشر الوعي الوطني داخل اليمن وفي المهجر، متطرقاً إلى أبرز أدوار وقصص المهاجرين اليمنيين الوطنية ،حيث أورد مطهر قائمة الأسماء النضيرة لأدوار وطنية مشرقة كانت نتيجتها الإعدام بعد التضحية بالمال لبعضهم، وبعضهم الآخر، فلّس تماماً ليجد نفسه كما كان قبل بداية نشاطه التجاري، ومنهم من تجرع السجن ولم يغفل مطهر حلقة الوصل بالداخل فقد استعرض باستفاضة دور السيد أحمد الباشا المقيم بتعز الذي كان همزة الوصل مابين المواطنين الأحرار داخل اليمن وخارجها وخاصة عدن.

آثار فشل ثورة ٤٨م

بعد ذلك قدم المناضل عبدالغني مطهر لمحة مقتضبة عن ظروف ثورة ١٩٤٨م وآثار فشلها على الحركة الوطنية حيث اجتاحت أوساط الأحرار في المهجر موجة الأسى وخبث في نفوس البعض منهم مشاعل الأمل في الوقت الذي كانت برقيات التهاني والمبايعات تنهال على إمام طاغ جديد من أسرة حميد الدين.

ويقول مطهر في كتابه عن هذه النكسة: "لم تدمع أعيننا ولم تنفطر قلوبنا حزناً على أموال أنفقناها أو جهود بذلناها، وإنما كان الحزن والأسى لما تكبده الوطن من فقد فريق كبير كريم من رجاله الأحرار. فمنهم من روت دماؤه الزكية أرض الوطن، ومنهم من زج به في غياهب السجون".

وتطرق مطهر لما تلا تلك النكسة من أحداث واختلاف في صف أعضاء الجمعية اليمنية الكبرى وظروف مرحلة النصف الأول من الخمسينيات ومماطلة الإمام أحمد لوعوده في الإصلاحات وانصرافه إلى بث فكرة توريث في تنصيب ابنه البدر، وما أفرزته تلك الظروف من احتقان سياسي انتهى بانقلاب سنة ١٩٥٥م حيث يوم ٢٥ مارس من ذلك العام تفجير ثورة مسلحة في تعز بقيادة القدم أحمد الثلايا أجبرت الإمام أحمد على التنحي عن العرش لأخيه عبدالله بن يحيى حميد الدين، في حيلة مكنته من كسب الوقت للاتصال بأعوانه وحرسه وإدخالهم مع الكثير من المؤن والذخائر إلى القصر من مداخله الخلفية، كما وزع عليهم وعلى رجال المدفعية بقلعة القاهرة المطلة على العرضي بتعز النقود الذهبية ليبدأ الضرب المكثف على ثكنات العرضي من قصره المسيطر عليها، تسانده المدفعية التي كان قد ضمن ولاءها ليعدم المقدم الثلايا وخمسة عشر ثائراً ويعدم أخويه عبدالله والعباس بالسيف وقضى بالسم على أخويه القاسم ويحيى.

(٥٥) وبث الرعب الأسطوري

بعد النضال والكفاح في أرض المهجر، في زمن غياب وانعدام وسائل الاتصال والإعلام، اتجه المناضل عبدالغني مطهر نحو الوطن تاركاً نشاطه التجاري ومشروعه كرجل أعمال نشيط في زمن المعاناة والتجارة الحقيقية ليقفل عائداً إلى أرض الوطن خصوصاً بعد تعاظم الطغيان الإمامي بعد فشل ثورة (٥٥) التي كانت بداية لأن يبدأ الإمام أحمد ببث الرعب الأسطوري في نفوس الوطن المسلوب كل أسباب الحرية، وكان وضع تلاشي الحركة الوطنية وانكماشها سبباً آخر دعا مطهر لاتخاذ قرار العودة إلى الوطن في نصف ١٩٥٧م.

يقول مطهر في هذا الشأن: ولم يكن هيناً تنفيذ قرار العودة فقد تطلب مني تنفيذه أن أضع برنامجاً زمنياً محدداً لتصفية جميع أعمالي التجارية في المهجر، وإنهاء كل متعلقاتي الشخصية وترتيب كيفية السفر والإقامة بأرض الوطن، وقد وفقني الله في تنفيذ ذلك والإقامة بأرض الوطن".

واستعرض مطهر في سياقات سردية جميلة مشهد القرية كاختزال لصورة الوطن حينها ،ومدى المعاناة التي يعيشها الناس، التي دفعته إلى أن يتجه إلى عقد لقاءات مع رجال القوات المسلحة والشرطة الذين يملكون العدة والسلاح والتدريب ودراسة مدى استعدادهم، وإمكانياتهم للقيام بالثورة، ثم بعد ذلك دراسة إمكانية التعاون في هذا الشأن مع الأحرار الوطنيين من فئات الشعب المختلفة من قبائل وتجار وقضاة وعلماء ومثقفين، وصولاً إلى اللقاء المنشود بين الأحرار، ليبدأ بتواصله بالملازم محمد مفرح -مدير شرطة المخا- ليبدأ السير معاً لتكوين خلية في تعز من الأحرار من جميع الفئات الوطنية من الشعبة العسكرية والأمن والمدنيين وقطاع المشائخ والعلماء والتجار وقطاع الحرس الملكي وأخرى وصولاً إلى التأسيس الفعلي للخلية الرئيسية للأحرار بتعز، لتتسع دائرة هذه الخلية محولة لواء تعز إلى خارطة تعج بالأحرار ولا تتسع المساحة هنا لإيراد تفاصيل ومراحل التكوين لهذه الخارطة الثورية.

بعد ذلك قدم المناضل الكبير رجل الأعمال عبدالغني مطهر قائمة تزخر بها ذاكرته وعلاقاته الشخصية النضالية بعدد كبير من الشخصيات النضالية، التي شاركت في التمهيد والإعداد لثورة سبتمبر المجيدة سارداً من خلال هذا التناول العلاقات الشخصية والنضالية بينه وبين تلك وبإنصاف دقيق رغم مـا وردت من أحداث بعد الثورة أشار إليها مطهر بتجرد وشجاعة أوردت الخلل الذي حصل بعد الثورة في صفوف النظام الجمهوري .. مفنداً حيثيات تلك الحقائق غير متناس الجانب المشرق والظل الإيجابي لكل ما أورده من جوانب قصور بدرت في سيرة نضال مابعد الثورة.

اكتمال التنظيم

بعد ذلك اكتمل التنظيم مع التقاء كافة خلايا الأحرار سواء التي في المهجر أو التي في الداخل، وتناول مطهر بعد ذلك تفاصيل عن اللقاءات مع المصريين في الداخل ودور تلك اللقاءات في بلورة الرؤى العملية والتخطيط للقيام بالثورة وما رافقت ذلك من مخاطر وظروف اتسمت بالمجازفة بالمال والنفس والجاه وغيرها من صنوف التضحية، تلت ذلك اللقاءات مع المسئولين في القاهرة ابتداء من إبريل عام ١٩٦٢م حين تم ترشيح مطهر من قبل جماعة الأحرار للسفر إلى القاهرة للتفاوض مع المسئولين المصريين هناك.

بعد ذلك سرد عبدالغني مطهر في كتابه تفاصيل الإعداد النهائي لتفجير الثورة بعد العودة من القاهرة وقبيل وفاة الإمام أحمد وظروف تلك المرحلة وخصوصاً ظروف وفاة الإمام أحمد ومقاصد الأسرة الملكية من كتمان خبر موته ثم بعد ذلك ظروف الأيام القليلة السابقة لتفجير الثورة .. ومخاض ميلاد اليمن الجمهوري.

كان الناس يعيشون كالعبيد في أرض ضرب عليها حكامها نظاماً رهيباً من العزلة

بعد فشل ثورة ١٩٤٨م نكّل الإمام أحمد بمعظم رجالات اليمن وعقب ثورة ١٩٥٥م، بدأ ببث الرعب الأسطوري والتنكيل بأقرب المقربين

كانت اليمن سجناً كبيراً، لا يسمع نزلاؤه سوى إذلال كل من اعترض جرائم عساكر الإمام من سلب ونهب وسفك دماء

الوحدة اليمنية.. ثمرة مباركة وإنجاز تاريخي مقدس لكفاح شعب مناضل تغلب على الاستبداد والظلم والكهنوت والشمولية

علي عبدالله صالح
رئيس الجمهورية